مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف

المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

القرائن الخارجة عن النص ودورها في التأويل عند الإمام الشاطبي في كتاب الموافقات

Evidence outside the text outside the text and its role in interpretation according to Imam Al-Shatibi in Kitab Al-Muwafakat

دباغي أحمادو
طالب دكتوراه قسم العلوم الإسلامية-جامعة أحمد درابة أدرار

ملخص: لا يمكن فهم القرآن بالاقتصار على تحديد معنى الدلالات اللغوية لألفاظه، بل لا بد من الرجوع إلى السياق العام الذي جاء فيه، وبسبب إهمال سياق هذا النوع من القرائن والاقتصار على الألفاظ والتراكيب انحرفت طوائف كثيرة في فهم القرآن وتأويله، ومن الذين أبدعوا في بيان ذلك الشاطبي في موافقاته.

كلمات مفتاحية: القرائن؛ الخارجة عن النص؛ الشاطبي؛ الموافقات

Abstract: It is not possible to understand the Qur'an by limiting itself to defining the meaning of the linguistic connotations of its words، but rather it is necessary to refer to the general context in which it came.

. Al-Muwwafaat، Al-Shatibi،**Keywords**: Evidence outside the text

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

مقدمة:

النص، أي النص- كالكائن الحي- مرتبط ببيئة لا ينفصل عنها ولا ينفك، تشده-النص-

إلى بيئته روابط وخيوط، يمكن تسميتها بالنسبة للنص القرآني بالقرائن، وبتفعيل هذه الروابط والقرائن يُفَعَّل النص، وتستنبط منه المعاني الصحيحة.

القرآن الكريم نزل في بيئة اجتماعية وثقافية وسياسية واقتصادية. إلخ؛ لذلك راعى القرآن في خطابه كل ذلك، وهذا يعني أن على مفسِّر النص القرآني أن يضع كل ذلك في حسبانه وهو يفسر ذلك النص، فمن لا يعرف المجتمع العربي بعلومه وثقافاته وتقاليده وأخلاقه لن يفهم القرآن فهما صحيحا حتى وإن فهم لغته.

والأكثر معرفة بمجتمع العرب، هو الأدق فهما لكتاب الله تعالى؛ لذا كان الصحابة أفقه من غيرهم بمعاني القرآن ومقاصده؛ باعتباره نزل في البيئة التي عاشوا فيها.

فاللغة التي يتخاطب بها البشر ليست ألفاظا ومبان فقط، بل هي تقاليد وأعراف وغيرها وأبناء المجتمع الواحد أكثر فهما لبعضهم من غيرهم، حتى ولو اشترك معهم هذا الغير ألفاظ ومباني اللغة، ما دام لا يشاركهم العناصر الأخرى، التي هي التقاليد والأعراف. إلخ، وربما حتى المشاعر والأحاسيس.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

فهذه العناصر كلها قرائن في عقل المفسر، قد لا يصرح بها، لكنها حاضرة بالضرورة في ذهنه وهو يفسر النص؛ لأن المخاطِب قد وضعها في الحسبان، وهو يخاطب مجتمعا ما، بكلام ما.

فقد يتساءل البعض مثلا لماذا ركز القرآن في ترسيخ العقيدة الإسلامية على الحديث عن الأرض والسماء والجبال والإبل والبحر وغيرها مما تعرفه العرب، دون ذكر أشياء أخرى لا تعرفها العرب؛ والسبب أن القرآن خاطب العرب بالأشياء التي يعرفونها.

فالذي يرى خطاب جميع المجتمعات بالعقيدة الإسلامية من خلال الاقتصار على نفس الظواهر الطبيعية التي خاطب بها القرآن العرب لم يفهم القرائن التي وضعها القرآن في حسبانه وهو يدعو إلى عقيدة التوحيد.

فالتذكير بعظمة الله في خلق ظواهر طبيعية تعرفها العرب وسائل لترسيخ العقيدة وليست غايات؛ لذلك لا مانع من التذكير بعظمته في خلق ظواهر طبيعية أخرى، او حيوانات لم يذكرها القرآن؛ لأن العرب لم تكن تعرفها، مثل حيوان التمساح أو غيره بدل التذكير بعظمته في خلق البعير في مجتمع لا يعرف أهله البعير-مثلا-، أو التذكير بعظمته في خلق البراكين، أو ظواهر جيولوجية غير موجودة في البيئة العربية.

بل هناك ظاهرة فلكية لم تسمع بها العرب قط، وهي بقاء الليل، أو النهار نصف سنة، فلِم لا يتم توظيف هذه الظاهرة في الحديث عن الخالق، وهي ظاهرة لم يجد الفقهاء نصا شرعيا لبيان حكم الصوم والصلاة فيها إلا حديث الدجال

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

الذي هو حديث عن الغيب، مما يؤكد مراعاة النص الشرعي لقرائن مرتبطة بعلم وثقافة وأخلاق وتقاليد المخاطبين به.

وحتى وإن كانت التكنولوجية في هذا العصر قد جعلت هذا الكوكب قرية واحدة لا تخفى فيه ظاهرة فلكية عن أحد موجود على سطحه، فإن المقصود هو إيضاح مسألة القرائن في الخطاب القرآني.

ومما يمكن إيراده في هذا الصدد، أنه لماذا ذكَّر القرآن العرب بكون هذا الدين هو ملة إبراهيم، فهذا لا يعني أنه ليس ملة موسى وملة يوسف وغيرهما من الأنبياء؛ بل ذلك لسبب أن العرب تعرف بقية من بقايا دين إبراهيم وتتمسك بها، فراعى القرآن هذا الواقع؛ من أجل إيناسهم وتأليف قلوبهم، فلا ضير لمن يخاطب غير العرب بالإسلام أن يؤنس قلوبهم بكون هذا الدين هو دين النبي والرسول الذي يعرفون.

ومن ذلك اقتصار القرآن الكريم في حديثه عن نعيم الجنة على بعض أنواع النعيم والثمار التي يتمتع بها الناس في هذه الدنيا، دون ذكر أنواع أخرى من النعيم موجودة في هذه الحياة، وهي من نعيم الجنة بلا شك، كالموز والتفاح وكالشاي والقهوة وغيرها؛ والسبب أن العرب لم تكن تعرف هذه المآكل والمشارب، فأجمل القرآن الإشارة إليها دون تفصيل، أو تمثيل لها، كما قال تعالى:
(وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنْفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ) [الزخرف: من: 71].

فالذي لا يعرف المجتمع العربي أو لا يراعي هذا المجتمع في التفسير، قد يذهب إلى القول إن أنواع النعيم التي لم يذكرها القرآن ليست موجودة في الجنة، ولو كانت فيها لذكرها كما ذكر أنواعا من النعيم، وهذا شطط وانحراف في التفسير؛ سببه جهل ما تعرفه العرب من أنواع الثمار والفواكه.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

وقبل إنهاء الحديث في هذه المقدمة، لا بد من الإشارة إلى أن الكلمة قد يكون لها مدلول في سياق ما، ومدلول مغاير في سياق آخر، وسياق الكلام من القرآئن الخارجة عن النص.

ومثال ذلك: العين التي تطلق على الجارحة في سياق، وعلى عين الماء في سياق آخر، وعلى الجاسوس في سياق ثالث؛ ولتحديد معنى الكلمة لابد من معرفة سياقها، ليس فقط اللفظي، بل وغير اللفظي، فذكر العين بين الجواسيس لا تعني العين في هذا السياق إلا الجاسوس.

ولئن كان أهم مقصد يطلب من تأويل النص القرآني هو مقصد دخول المكلف تحت خطابه فهدف أي تأويل له هو تحقيق هذا الأمر؛ من أجل أن يمتثل المكلف له؛ وذلك لاستحالة امتثال أحد لخطاب لا يفهمه، ومعرفة الأشياء- والتي هي قرائن-التي وضعها القرآن في اعتباره، وهو يخاطب المكلفين بأوامره ونواهيه أمر شارح لمقاصده ومراميه.

إشكالية البحث: هل يتطلب فهم القرآن وتفسيره فقط توضيح معاني الكلمات والمفردات وتراكيب الجمل حسب قاموس الألفاظ والمعاني،

أم لا بد من استحضار عناصر أخرى منفصلة عن النص القرآني كمنظومة لغوية متكونة من مفردات وجمل؟

بمعنى آخر، هل يستطيع أن يفسر القرآن من لا يعرف المجتمع العربي وتقاليده بالاقتصار على توضيح معاني الجمل والكلمات.

وكيف عالج الشاطبي هذه المسألة، أي مسألة القرائن الخارجة عن النص، من خلال كتاب الموافقات؟

والمقصود بالقرائن هي: أمية العرب، وعلوم العرب، وثقافة العرب، وأخلاق العرب.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

المطلب الأول: التعريف بالإمام الشاطبي وكتاب الموافقات

من العلماء الأفذاذ المبدعين والمنظرين للاجتهاد في علوم الشريعة عموما وفي مقاصدها وحكمها خصوصا الإمام الشاطبي في كتبه عامة وفي كتاب الموافقات خاصة.

الفرع الأول: التعريف بالإمام الشاطبي

الإمام الشاطبي هو: "إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الغرناطي أبو إسحاق الشهير بالشاطبي"[1].

أولا: المولد والنشأة

لم يُلق المترجمون للإمام الشاطبي الأضواء على نسبه وأسرته، ولم يذكروا سنة ولادته[2]، وذكروا سنة وفاته التي كانت في شعبان سنة 790هـ[3]، وقد وُلِد ونشأ في غرناطة[4]، التي كانت "في ذلك العصر أعظم مركز للدراسات

(1) أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني أبو العباس، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت: عبد الحميد عبد الله الهرامة ط2 دار الكتب طرابلس ليبيا 2000م: ص48.

(2) ينظر: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، الإفادات والإنشادات، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان ط1 مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان 1403هـ 1983م: ص17.

(3) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص50.

(4) ينظر: الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المصدر السابق: ص17.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

العلمية والأدبية في مغرب العالم الإسلامي"[1] وقد شَغُف الشاطبي بالعلم منذ صغره[2].

ثانيا: الشيوخ والتلاميذ:

للإمام الشاطبي شيوخ وتلاميذ من الفقهاء والعلماء المشهورين والمعروفين.

01-شيوخه:

أخذ الإمام الشاطبي العلم عن أئمة أعلام منهم:

-"ابن الفخار البيري، أخذ عنه العربية"[3].

-"الإمام الشريف رئيس العلوم اللسانية أبوالقاسم السبتي شارح مقصورة حازم"[4].

-"الإمام المحقق أعلم أهل وقته الشريف أبو عبد الله التلمساني"[5].

-"الإمام علامة وقته بإجماع أبو عبد الله المقري"[6].

-"أبو سعيد بن لب"[7].

---

(1) الإمام شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، ط1 دار ابن كثير- بيروت، 1406هـ- 1986م:ج1ص69.

(2) ينظر: الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: ص18.

(3) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص48.

(4) أحمد بابا، نيل الابتهاج: المصدر السابق: ص48.

(5) أحمد بابا: المصدر السابق: ص48،49.

(6) أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

(7) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

-أبو جعفر الشقوري[1].

02-تلاميذه:

أخذ عن الإمام الشاطبي علماء منهم:

-أبو يحي بن عاصم[2].

-القاضي أبو بكر بن عاصم أخو يحي بن عاصم عاصم[3].

-أبو عبد الله البياني[4].

ثالثا: مكانته العلمية ومنهجه العلمي ومؤلفاته

للإمام الشاطبي مكانة علمية عالية، ومواقف إصلاحية بارزة، أرّخ لها العلماء وبينوها.

01-مكانته ومنهجه العلمي:

أ-مكانته العلمية:

الإمام الشاطبي من الأئمة الكبار الذين أشاد بمكانتهم وعلو شأنهم أعلام الفكر الإسلامي منذ ما بُعَيد عصر الشاطبي إلى اليوم.

جاء في نيل الابتهاج: "الإمام، العلامة المحقق، القدوة الحافظ الجليل، المجتهد. كان أصوليا، مفسرا، فقيها، محدثا، لغويا، بيانيا، نظارا، ثبتا.....إماما، مطلقا بحاثا، مدققا، جدليا، بارعا في العلوم، من أفراد العلماء المحققين الأثبات، وأكابر الأئمة المتفننين الثقات، له القدم الراسخ، والإمامة العظمى، في الفنون

(1) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

(2) نظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص50.

(3) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص50.

(4) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص50.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

فقها وأصولا، وتفسيرا، وحديثا، وعربية وغيرها مع التحري والتحقيق، له استنباطات جليلة، ودقائق منيفة، وفوائد لطيفة، وأبحاث شريفة وقواعد محررة"[1].

ومن المعاصرين الذين أشادوا بالشاطبي مصطفى أحمد الزرقاء الذي يقول: "إن الشيخ الإمام أبى إسحاق إبراهيم الشاطبي قمة علمية متميزة بخصائصها في علوم الشريعة"[2].

ويقول أبو الأجفان: "كان إبراهيم الشاطبي من ألمع أعلام عصره بالأندلس، يتبوأ مكانة علمية سامية، ويمتاز بتعمقه في علوم العربية، وعلوم الشريعة مما خول له استكناه أسرارها، وإبراز مقاصدها، وضبط قواعدها، وربط فروعها بأصلها"[3].

أما مكانته في التقوى، فقد عُرف بالصلاح والورع، فقد وصفه التنبكتي بقوله: "...ورعا صالحا زاهدا..... على قدم راسخ من الصلاح، والعفة، والتحري، والورع"[4].

ب-منهجه العلمي:

تميز منهج الإمام الشاطبي العلمي في موافقاته بالإستقراء الكلي لنصوص الشريعة وبيانها اعتمادا على أطراف القضايا العقلية، كما ذكر هو نفسه حيث

(1) أحمد بابا: المصدر السابق: ص48.

(2) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان ط2 1406هـ 1985م: ص7.

(3) الشاطبي الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: ص18.

(4) أحمد بابا: المصدر السابق: ص48.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

قال: "...معتمدا على الاستقراءات الكلية، غير مقتصر على الأفراد الجزئية، ومبينا أصولها النقلية بأطراف من القضايا العقلية"[1].

02-مؤلفاته وفتاواه:

للإمام الشاطبي مؤلفات مشهورة، ومعروفة، وفتاوى منتشرة، ومتداولة.

أ-مؤلفاته:

مؤلفات الإمام الشاطبي قليلة، تعد على أصابع اليد، لكنها قليلة النظائر من حيث الجدة والعمق والاحاطة والابداع.

ذكر مؤلفات الشاطبي أكثر من مترجم له، وممن ذكرها صاحب نيل الابتهاج بتطريز الديباج[2]، وهي:

-الموافقات، وسيأتي حديث عنها أكثر تفصيلا.

-المقاصد الشافية في شرح الخلاصة الكافية: وهو كتاب حققه الدكتور عبد الرحمن بن سليمان العثيمين، جاء في "نيل الابتهاج": ".. منها شرحه الجليل، على الخلاصة في النحو، في أسفار أربعة كبار لم يؤلف عليها مثله، تحقيقا، وتدقيقا، فيما أعلم"[3].

-الاعتصام: وقد طُبع كتاب الاعتصام عدة مرات، منها طبعة قدم لها وعلق عليها وخرَّج أحاديثها أبوعبيدة مشهور بن حسن آل سلمان، وذكره صاحب "نيل الابتهاج" بقوله: "وتأليف نفيس في الحوادث والبدع في سفر في غاية الإجادة"[4].

---

(1) أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات، تقديم: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان: ج1ص9.

(2) ينظر: أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

(3) أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

(4) أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

-الإفادات والإنشادات: وقد درس وحقق كتاب الإفادات والإنشادات: الدكتور محمد أبو الأجفان[1].

-كتاب المجالس شرح في كتاب البيوع من صحيح البخاري[2].

-كتاب الاتفاق في علم الاشتقاق.

- كتاب أصول النحو.

وقد جاء ذكر هذين الكتابين الأخيرين في نيل الابتهاج بتطريز الديباج[3].

ب-فتاوه:

للإمام الشاطبي فتاوى في القضايا والنوازل التي طرأت في عصره وحدثت في زمانه، يقول الدكتور محمد أبو الأجفان: "أنجبت غرناطة في القرن الثامن طبقة من المفتين....وكان مترجمنا من ألمع أفراد هذه الطبقة بفتاوه التي دلت على سعة وإلمام بالمنقول، وحسن اكتناه لمقاصد الشريعة وأسرارها، وقد تناولت الإجابة على مسائل من العبادات.... وتناولت الإجابة عن مسائل من المعاملات"[4].

ونقل الإمام الونشريسي بعض فتاوى الإمام الشاطبي في معياره، شملت معظم أبواب الفقه، من عبادات، ومعاملات، وشملت أيضا مسائل في الأصول، كما في مسألة مراعاة الخلاف[5].

(1) ط1/ 1403هـ -1983م، مؤسسة الرسالة- بيروت- لبنان.

(2) أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

(3) أحمد بابا: المصدر السابق: ص49.

(4) الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: ص45.

(5) ينظر: أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي،

رابعا: مواقفه الإصلاحية:

لم يكن الشاطبي عالما من علماء الشريعة فقط، بل كان عالما ومفكرا ومصلحا في نفس الوقت، عُرفت له مواقف في الإصلاح، خاصة في محاربة البدع، يقول محمد أبو الأجفان: ".. وانتشار بعض البدع التي كان الشاطبي يحس بخطرها ويميزها عن السنن المشروعة، ويوضح الأدلة على تحريمها، ويجري بذلك في مقاومتها على المنهج العلمي الرشيد، والطريق الشرعي المستقيم"[1].

الفرع الثاني: التعريف بكتاب الموافقات

من الكتب التي تقل نظائرها كتاب الموافقات، فلا تكاد تجد له نظيرا في موضوعه.

أولا: اسم الكتاب

كتاب الموافقات أشهر كتب الإمام الشاطبي، وقد أبدع الإمام الشاطبي في هذا الكتاب خاصة في تأسيس وبيان مقاصد الشريعة، وتحدث الإمام الشاطبي عن تأليف هذا الكتاب فقال: "... ثُمَّ اسْتَخَرْتُ اللَّهَ تَعَالَى فِي نَظْمِ تِلْكَ الْفَرَائِدِ،

نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية الرباط ودار الغرب الإسلامي-بيروت لبنان: 1401هـ، 1981م: ج6ص389 وكذا: ج1 ص26 و29 و278 327 ، وكذا: ج2 ص292 و468 511، وكذا: ج3 ص209، وكذا: ج4 ص140 و205، وكذا: ج5 ص23 و26 و59 و60 و101 و213، وكذا: ج6 ص71 و327 و387 و389 وكذا: ج7 ص101 و110 و125، وكذا: ج8 ص133 و384، وكذا: 9 ص227 و252 و633، وكذا: ج10 ص10/202 وكذا: ج11 ص39 و42 و103 و110 و112 و123 و131.

(1) الشاطبي، الإفادات والإنشادات: المرجع السابق: ص34.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

وَجَمْعِ تِلْكَ الْفَوَائِدِ، إِلَى تَرَاجِمَ، تَرُدُّهَا إِلَى أُصُولِهَا، وَتَكُونُ عَوْنًا عَلَى تَعَقُّلِهَا وَتَحْصِيلِهَا؛ فَانْضَمَّتْ إِلَى تَرَاجِمِ الْأُصُولِ الْفِقْهِيَّةِ، وَانْتَظَمَتْ فِي أَسْلَاكِهَا السَّنِية الْبَهِيَّةِ؛ فَصَارَ كتابا منحصرا في خمسة أقسام"[1] وقد سماه في البداية: "عنوان التعريف بأسرار التكليف"[2] ثم غيرَّ هذه التسمية إلى الموافقات؛ بسبب رؤيا منامية رآها كما ذكر هو في الموافقات[3].

ثانيا: أقوال العلماء فيه

كتاب الموافقات من الكتب ذات القيمة الكبيرة عند الفقهاء والأصوليين منذ مدة ليست بالقصيرة، جاء في نيل الابتهاج: "الموافقات..... كتاب جليل القدر، لا نظير له، يدل على إمامته، وبعد شأوه في العلوم، سيما علم الأصول "[4].

المطلب الثاني: تعريف القرينة والنص

من المصطلحات التي يتطلب البحث شرحها وبيانها بداية مصطلح: القرينة والنص.

الفرع الأول: القرينة

أولا: تعريفها:

القرائن جمع قرينة، والْقَرِينَة هي:

---

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص9.

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ص10.

(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ص10.

(4) أحمد بابا: المصدر نفسه: ص49.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

01-لغة: القرينة لغة "فَعِيلة بِمَعْنَى مَفْعُولَةٍ مِنَ الاقتِران، وَقَدِ اقْتَرَنَ الشَّيْئَانِ وتَقارَنا"[1].

والقرينة هي: "مَا يُوضح عَن المُرَاد، لَا بِالْوَضْعِ، تُؤْخَذ من لَاحق الْكَلَام الدَّال على خُصُوص الْمَقْصُود، أَو سابقه"[2].

02-اصطلاحا: القرينة "في الاصطلاح: أمر يشير إلى المطلوب"[3]، وقد تناولت القرينة اصطلاحا عدة علوم "مثل علم الاجتماع، وعلم النفس والقانون وعلوم اللغة "[4].

والتعريف الذي يحدد معنى القرينة بدقة في سياق البحث هو ما ذكره صاحب التمهيد في أصول الفقه ، فقد جاء فيه: "القرينة هي بيان لما أريد

(1) أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر- بيروت- لبنان: ج13ص336.

(2) أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبوالبقاء الحنفي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش - محمد المصر ط1، مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1419هـ 1998م: ص734.

(3) السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي، الكليات، التعريفات، وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان 1424هـ- 2003: ص175.

(4) نعيمة قدوري، القرائن اللغوية وغير لغوية وأثرها في تحليل الخطاب القرآني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الدلالة، قسم اللغة والأدب العربي، كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقائد، السنة الجامعية: 1436هـ-1437هـ/2015م-2016م: ص2.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

باللفظ، في عرف الشرع والعادة"[1]، فمعنى القرينة هي علامة أو إشارة تحدد مراد المتكلم من كلامه، وهذه الإشارة قد تكون من داخل الكلام، أي من سياق ألفاظه وجمله ومبانيه عامة، وقد تكون -هذه الإشارة- من خارج النص، وموضوعنا هو القرآئن من خارج الكلام ومرتبطة بعلوم وثقافة وتقاليد العرب .

ثانيا: أقسامها

قسم العلماء القرينة إلى ثلاثة أقسام: قرينة لفظية، وقرينة معنوية، وقرينة الحال[2].

وجاء تقسيمها في بعض كتب الأصول إلى: "إما لفظية، وإما سياقية، وإما خارجية"[3].

(1) محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي، التمهيد في أصول الفقه، تحقيق: الدكتور مفيد محمد أبوعمشة، ط1 مركز البحث وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى-مكة المكرمة 1406هـ -1985م: ج1ص183.

(2) ينظر: الجرجاني: المصدر السابق: ص175.

(3) الإمام الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ويليه كتاب مثارات الغلط في الأدلة، تحقيق: محمد علي فركوس، ط1 مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ 1998م: ص453.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

I -القرينة اللفظية:

المقصود بالقرينة اللفظية[1] تحديد المعنى من داخل اللفظ، أو ما يطلق عليه في علم اللغة المعاصر السياق اللساني[2] مثالها: " العود مشترك بين الخشبة -وجمعه إذ ذاك أعواد -وبين آلة الغناء- وجمعه إذ ذاك عيدان وكذلك، الأمر: مشترك بين القول المخصوص -وجمعه إذ ذاك أوامر- وبين الفعل- وجمعه إذ ذاك أمور"[3] أي يُحَدَّد معني الكلمة، أو الكلام من شيء مرتبط بذات اللفظ، كجمع المفرد-مثلا-، فجمع المفرد هو الذي يحدد المراد والمقصود منه.

II - القرينة السياقية:

يمكن تقسيم سياق[4] الكلام بالنسبة لنصوص القرآن، إلى سياق كلمة، وسياق جملة، وسياق سورة، وسياق القرآن كله، أو سياق القرآن مع السنة.

فمن الألفاظ مالا يمكن تحديد معناه إلا بالرجوع للسورة كلها، وأحيانا إلى القرآن كله وأحيانا أخرى إلى نصوص الكتاب والسنة معا، كلفظ الصلاة والزكاة والصوم وغيرها ولا يتسع المقام لشرح ذلك.

ويمكن عد القرينة السياقية والقرينة اللفظية نوعا واحدا؛ لأنها في النهاية تعني تحديد معنى الكلام من داخله، وذلك في مقابل القرينة الخارجية، التي لا يمكن تحديد معنى الكلام فيها إلا بأمر خارجي عن الكلام.

---

(1) ينظر: التلمساني: المصدر السابق: ص453.

(2) ينظر: المرجع السابق: ص7.

(3) ينظر: التلمساني: المصدر السابق: ص453.

(4) ينظر: التلمساني: المصدر السابق: ص455.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

III -القرينة الخارجية:

القرينة الخارجية[1] هي الأمور الخارجة عن النص، والتي لابد منها لتحديد معنى النص، وهي كثيرة، بعضها يفرضها العقل والمنطق، كما في قوله تعالى: (وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ) [يوسف: من82]، فالعقل والمنطق يفرض معنى غير الذي يوحي به ظاهر اللفظ المجرد، وهو توجيه السؤال إلى القرية ذاتها؛ فالقرية -الأبنية، والدور، ...- لا تسأل، وإنما يسأل أهلها.

وأهم قرينة يتم توظيفها في هذا السياق طريقة العرب في التخاطب وبيئتهم العلمية والثقافية والاجتماعية، والسياسية، والاقتصادية.....إلخ.

الفرع الثاني: النص

من المصطلحات المطلوب بيانها وتوضيحها في هذا الموضوع مصطلح "النص"

أولا: تعريفه

01-لغة: يطلق النص على معان منها: "نَصَصْتُ الحديث الى فلان نَصّاً أي رَفَعْتُه"[2] و "نَصَّ ما عنده أي استقصاه. ونصُّ كلُّ شيءٍ: مُنَتَهاه"[3].

---

(1) ينظر: التلمساني: المصدر السابق: ص456.

(2) أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي، والدكتور إبراهيم السامرائي: ج7ص86. وينظر: أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المعروف بابن سيده المحكم والمحيط الأعظم، تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط1 دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان 1421هـ 2000م: ج8ص271.

(3) الفراهيدي: المصدر السابق: ج7ص87.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

02-اصطلاحا: النص هو: "ما دل على معناه بصيغته من غير توقف على أمر خارجي، مع احتمال التخصيص، والتأويل، احتمالا، أضعف، من احتمال الظاهر"[1].

وعرفه البزدوي بقوله: "وأما النَّصُّ: فَمَا ازداد وُضُوحًا عَلَى الظَّاهِرِ، بِمَعْنًى مِنْ الْمُتَكَلِّمِ لَا فِي نَفْسِ الصِّيغَةِ، مَأْخُوذٌ مِنْ قَوْلِهِمْ: نَصَّصْت الدَّابَّةَ، إذَا اسْتَخْرَجْت بِتَكَلُّفِك مِنْهَا سَيْرًا، فَوْقَ سَيْرِهَا الْمُعْتَادِ، وَسُمِّيَ مَجْلِسُ الْعَرُوسِ مِنَصَّةً؛ لِأَنَّهُ ازْدَادَ ظُهُورًا عَلَى سَائِرِ الْمَجَالِسِ"[2]، فقوله: "فَمَا ازداد وُضُوحًا عَلَى الظَّاهِرِ، بِمَعْنًى مِنْ الْمُتَكَلِّمِ لَا فِي نَفْسِ الصِّيغَةِ"، أي: لبيان مراد المتكلم لا بد من اللجوء إلى أمر من خارج صيغة النص؛ لقرينة من القرائن الخارجية، وهي كثيرة-كما سبق.

ثانيا: المقصود به

المقصود بالنص في البحث هو النص القرآني وهو: "كلام الله المنزل على النبي محمد صلى الله عليه وسلم المكتوب في المصاحف، المنقول بالتواتر، المتعبد بتلاوته، المعجز ولو بسورة منه[3] الذي يُنظَر إليه من زاويتين:

1-زاوية كونه كلام الله لا دخل للبشر في وضعه، لا من حيث اللفظ والجمل، ولا من حيث المعاني وهو من هذا الجهة معجز، لا يستطيع بشر أن يأتي بمثله.

---

(1) إبراهيم محمد الجرمي، معجم علوم القرآن ط1 دار القلم دمشق، 1422هـ-2001م: ص293).

(2) عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي، دار الكتاب الإسلامي: ج1ص46،47.

(3) نور الدين عتر، علوم القرآن، ص: 10.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

2-زاوية كون المخاطبين به بشرا، فهو من هذه الزاوية، ككل كلام يفهمه البشر، فهو ميسر للبشر من حيث القدرة على ترديده وتلاوته، أو من حيث فهم معانيه ومقاصده، كما قال تعالى:

(وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ) [القمر: 17]، وفي هذه الزاوية يأتي الحديث عن القرائن الموضحة لمعنى القرآن.

المطلب الثالث: القرائن

القرائن الخارجة عن النص لا تظهر في ألفاظه وعباراته، وإنما هي أشياء مرتبطة ببيئة الكلام، ويجعلها المتكلم في حسبانه أثناء الكلام.

الفرع الأول: أمية العرب

أهم مقاصد الخطاب القرآني خصوصا والشرعي عموما بيان التكاليف التي يطلب من العباد امتثالها، فعلا أو تركا، ولا يمكن تطبيق أي خطاب إذا لم يفهم محتواه، ويتضح مضمونه وحول هذا الأمر ذكر الشاطبي أربعة مقاصد لوضع الخطاب الشرعي وفي مقدمته الخطاب القرآني. قال الشاطبي: "من جهة قصده لوضع الشريعة ابتداء، وقصده في وضعها للأفهام بها، وقصده في وضعها للتكليف بمقتضاها، وقصده في دخول المكلف تحت حكمها"[1].

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص5.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

وما دام القصد الأول للخطاب القرآني هو العمل بمقتضى تكاليفه، فأول ما راعاه هذا الخطاب، هو أمية المخاطبين به، وقد كرر الشاطبي في موافقاته الحديث عن هذه المسألة، فقال في عدة مواضع من كتاب الموافقات: "الشَّرِيعَةَ أُمِّيَّةٌ، لَمْ تَخْرُجْ عما ألفته العرب"[1].

"وَمِنْهَا: أَنْ تَكُونَ التَّكَالِيفُ الِاعْتِقَادِيَّةُ وَالْعَمَلِيَّةُ مِمَّا يَسَعُ الْأُمِّيَّ تَعَقُّلُهَا؛ لِيَسَعَهُ الدُّخُولُ تَحْتَ حُكْمِهَا، أَمَّا الِاعْتِقَادِيَّةُ بِأَنْ تَكُونَ مِنَ الْقُرْبِ لِلْفَهْمِ وَالسُّهُولَةِ عَلَى الْعَقْلِ بِحَيْثُ يَشْتَرِكُ فِيهَا الْجُمْهُورُ، مَنْ كَانَ مِنْهُمْ ثَاقِبَ الْفَهْمِ، أَوْ بَلِيدًا-، فَإِنَّهَا لَوْ كَانَتْ مِمَّا لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا الْخَوَاصُّ، لَمْ تَكُنِ الشَّرِيعَةُ عَامَّةً، وَلَمْ تَكُنْ أُمِّيَّةً، وَقَدْ ثَبَتَ كَوْنُهَا كَذَلِكَ، فَلَا بُدَّ أَنْ تَكُونَ الْمَعَانِي الْمَطْلُوبُ عِلْمُهَا وَاعْتِقَادُهَا سَهْلَةَ الْمَأْخَذِ.....فالتعمق في البحث فيها، وتطلب ما لا يشترك الجمهور في فهمه خروج عن مقتضى وضع الشريعة الأمية[2].

ومن سياسات القرآن في خطاباته -كما ذكر الشاطبي- مراعاة معهود الأميين في كلامهم وحديثهم، فقال: "وَمِنْهَا: أَنَّهُ لَا بُدَّ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ مِنِ اتِّبَاعِ مَعْهُودِ الْأُمِّيِّينَ، وَهُمُ الْعَرَبُ الَّذِينَ نَزَلَ الْقُرْآنُ بِلِسَانِهِمْ، فَإِنْ كَانَ لِلْعَرَبِ فِي لِسَانِهِمْ عُرْفٌ مُسْتَمِرٌّ، فَلَا يَصِحُّ الْعُدُولُ عَنْهُ فِي فَهْمِ الشَّرِيعَةِ"[3].

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص126.

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص141/142.

(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص132.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

وذكر الإمام الشاطبي من أسباب انحراف الفرق الضالة وشطط الجماعات الخارجة عن جمهور المسلمين من أهل السنة والجماعة، هو تكلف مالا يسع عموم الناس فهمه، فقال: "ومن طماح النفوس إلى ما لم تكلف به نشأت الفرق كلها أو أكثرها "[1].

وما دام القرآن راعى أمية العرب في خطابه، فالمطلوب تفسيره بمعنى تقريبي يدركه الجمهور من الناس، وليس النخبة فقط، يقول الشاطبي: "تفسير القرآن بمعنى تقريبي يليق بالجمهور، أو بمعنى لا يليق بالجمهور"[2]، وقد ساق الشاطبي لذلك أمثلة، منها: تفسير المَلَك بأنه: "خلق من خلق الله يتصرف بأمره"[3]، أو تفسير الإنسان بأنه: "هذا الذي أنت من جنسه"[4]، أو تفسير الكوكب بأنه هو: "الذي تشاهده بالليل"[5].

ويسوق الشاطبي أنموذجا لتفسير القرآن بما لا يسع الجمهور من العرب الأميين فهمه وإدراكه فيقول: ".. وَبِهِ تَعْلَم..: (أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ) لَا يَدْخُلُ فِيهِ مِنْ وُجُوهِ الِاعْتِبَارِ عُلُومُ الْفَلْسَفَةِ الَّتِي لَا عَهْدَ لِلْعَرَبِ بِهَا، وَلَا يليق بالأميين الذين بُعث فيهم النبي الأمي صلى الله

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص142.
(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص67.
(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص67.
(4) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص67.
(5) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص67.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

عليه وسلم بِمِلَّةٍ سَهْلَةٍ سَمْحَةٍ، وَالْفَلْسَفَةُ -عَلَى فَرْضِ أَنَّهَا جَائِزَةُ الطَّلَبِ- صَعْبَةُ الْمَأْخَذِ، وَعِرَةُ الْمَسْلَكِ، بَعِيدَةُ الْمُلْتَمَسِ، لَا يَلِيقُ الْخِطَابُ بِتَعَلُّمِهَا كَيْ تُتعرف آيَاتِ اللَّهِ وَدَلَائِلَ تَوْحِيدِهِ لِلْعَرَبِ النَّاشِئِينَ فِي مَحْضِ الْأُمِّيَّةِ"[1].

فالقرآن اعتمد أسلوبا يناسب عقول عامة الناس، مثقفهم وغير مثقفهم، بمعنى أن الخطاب القرآني ليس نخبويا، يقول الشاطبي: "وَأَمَّا إِذَا كَانَ الطَّرِيقُ مُرَتَّبًا عَلَى قِيَاسَاتٍ مُرَكَّبَةٍ، أَوْ غَيْرِ مُرَكَّبَةٍ؛ إِلَّا أَنَّ فِي إِيصَالِهَا إِلَى الْمَطْلُوبِ بَعْضَ التَّوَقُّفِ لِلْعَقْلِ؛ فَلَيْسَ هَذَا الطَّرِيقُ بِشَرْعِيٍّ، وَلَا تَجِدُهُ فِي الْقُرْآنِ، وَلَا فِي السُّنَّةِ، وَلَا فِي كَلَامِ السَّلَفِ الصَّالِحِ"[2].

والسبب في ذلك أن الهدف الأول من الخطاب القرآني هو عمل المكلف بمحتواه ومضمونه، ولا يمكنه ذلك إلا بفهم ما فيه، ولن يحصل الفهم إذا كان الخطاب فوق مستوى العامة؛ لذا كان أسلوب النص القرآني يسع الجمهور، أي العالم وغير العالم، الذكي والمتوسط الذكاء والقليل الذكاء، يقول الشاطبي: "أَنَّهُ إِنَّمَا يَصِحُّ فِي مَسْلَكِ الْأَفْهَامِ وَالْفَهْمِ مَا يَكُونُ عَامًّا لِجَمِيعِ الْعَرَبِ، فَلَا يُتَكَلَّفُ فِيهِ فَوْقَ مَا يَقْدِرُونَ عَلَيْهِ، بِحَسَبِ الْأَلْفَاظِ وَالْمَعَانِي، فَإِنَّ النَّاسَ فِي الْفَهْمِ وَتَأَتِّي التَّكْلِيفِ فِيهِ لَيْسُوا عَلَى وِزَانٍ وَاحِدٍ وَلَا مُتَقَارِبٍ، إِلَّا أَنَّهُمْ يَتَقَارَبُونَ فِي الْأُمُورِ الْجُمْهُورِيَّةِ وَمَا وَالَاهَا، وَعَلَى ذَلِكَ جَرَتْ مَصَالِحُهُمْ فِي الدُّنْيَا، وَلَمْ يَكُونُوا بِحَيْثُ يَتَعَمَّقُونَ فِي

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص65.
(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص71.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

كَلَامِهِمْ وَلَا فِي أَعْمَالِهِمْ، إِلَّا بِمِقْدَارِ مَا لَا يُخِلُّ بِمَقَاصِدِهِمْ، اللَّهُمَّ إِلَّا أَنْ يَقْصِدُوا أَمْرًا خَاصًّا لِأُنَاسٍ خَاصَّةٍ، فَذَاكَ كَالْكِنَايَاتِ الْغَامِضَةِ وَالرُّمُوزِ الْبَعِيدَةِ الَّتِي تَخْفَى عَنِ الْجُمْهُورِ، وَلَا تَخْفَى عَمَّنْ قُصِدَ بِهَا، وَإِلَّا كَانَ خَارِجًا عَنْ حُكْمِ مَعْهُودِهَا فَكَذَلِكَ يَلْزَمُ أَنْ يَنْزِلَ فَهْمُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، بِحَيْثُ تَكُونُ مَعَانِيهِ مُشْتَرَكَةً لِجَمِيعِ الْعَرَبِ"[1]، ويزيد الشاطبي المسألة بيانا فيقول: "فالحاصل أن الواجب في هذا المقام إجراء الفهم في الشريعة على وزان الاشتراك الجمهوري، الذي يسع الأميين، كما يسع غيرهم"[2]، واستدل الشاطبي على ذلك بحديث عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ، قَالَ: "لَقِيَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم جِبْرِيلَ، فَقَالَ: "يَا جِبْرِيلُ إِنِّي بُعِثْتُ إِلَى أُمَّةٍ أُمِّيِّينَ: مِنْهُمُ العَجُوزُ وَالشَّيْخُ الكَبِيرُ، وَالغُلَامُ، وَالجَارِيَةُ، وَالرَّجُلُ الَّذِي لَمْ يَقْرَأْ كِتَابًا قَطُّ، قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنَّ القُرْآنَ أُنْزِلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرُفٍ".

قال الترمذي: حسن صحيح[3].

من العلماء من عارض رأي شاطبي حول أمية الشريعة بإطلاق، يقول الشيخ عبد الله دراز:

---

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص136.

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص138.

(3) محمد بن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط1 دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع 1431هـ: ج16ص525. وينظر: الشاطبي، الموفقات: المصدر السابق: 138/2.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

"...وهذا كله فيما يتعلق بأحكام التكليف؛ لأنه عام يجب أن يفهمه العرب والجمهور؛ ليمكن الامتثال، أما الأسرار والحكم، والمواعظ والعبر، فمنها ما يدق عن فهم الجمهور، ويتناول بعض الخواص منه شيئا فشيئا بحسب ما يسره الله لهم وما يلهمهم به"[1].

ويقول أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان: "إذا نظرنا للحديث الصحيح: "بلغوا عني ولو آية؛ فرب مبلغ أوعى من سامع"، مع العلم بأن القرآن للناس كافة، وأنه ليس مخاطبا به خصوص طائفة العرب في العهد الأول لها، بل العرب كلهم في عهدهم الأول وغيره وغير العرب كذلك، إذا نظرنا بهذا النظر لا يمكننا أن نقف بالقرآن وبعلومه وأسراره وإشاراته عند ما يريده المؤلف، وكيف نوفق بين ما يدعو إليه من ذلك، وبين ما ثبت من أنه لا ينضب معينه؟ والخير في الاعتدال؛ فكل ما لا تساعد عليه اللغة، ولا يدخل في مقاصد التشريع؛ يعامل المعاملة التي يريدها المؤلف، أما ما لا تنبو عنه اللغة، ويدخل في مقاصد الشريعة بوجه؛ فلا يوجد مانع من إضافته إلى الكتاب العزيز، ومنه ما يتعلق بالنظر في مصنوعات الله للتدبر والاعتبار وتقوية الإيمان وزيادة الفهم والبصيرة"[2].

ومعنى كلام دراز وأبي عبيدة: أن فهم الشريعة يتطلب مستويات من الذكاء والفهم، ففيها الحد الأدنى الذي يفهمه كل مكلف، وفيها مسائل لا يفهمها

(1) ينظر: الشاطبي، الموافقات، ت: عبد الله دراز، دار الحديث القاهرة، 1427هـ-2005م: ج2ص308.

(2) ينظر: الشاطبي، الموافقات، المصدر السابق: ج1ص65.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

إلا العلماء، ولا يضر الشخص العادي عدم فهم المسائل التي تفوق مستواه العلمي والعقلي؛ لأن امتثاله لأوامر الشرع -كمكلف- لا يتوقف على هذا المستوى العالي من الفهم.

الفرع الثاني: أسلوب العرب في الكلام

أسلوب القرآن وطريقته في الخطاب عربية، ليس فيه شيء من أساليب غير العرب، وهذا لا يعني أن ليست في القرآن كلمة من غير عربية، أو فيه كلمة من غير العربية نطق بها العرب وصارت من العربية؛ لأن ذلك يتعلق بعلم النحو، وإنما المقصود أن القرآن بنى أسلوبه في الخطاب على طريقة العرب في الكلام، فطريقة العرب في الكلام قرينة تحدد المراد من كلام الله، يقول الشاطبي: "وَهِيَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ لَيْسَ فيه من طرائق كلام الْعَجَمِ شَيْءٌ، وَكَذَلِكَ السُّنَّةُ، وَأَنَّ الْقُرْآنَ عَرَبِيٌّ، وَالسُّنَّةُ عَرَبِيَّةٌ، لَا بِمَعْنَى أَنَّ الْقُرْآنَ يَشْتَمِلُ عَلَى أَلْفَاظٍ أَعْجَمِيَّةٍ فِي الْأَصْلِ، أَوْ لَا يَشْتَمِلُ؛ لِأَنَّ هَذَا مِنْ عِلْمِ النَّحْوِ وَاللُّغَةِ، بَلْ بِمَعْنَى أَنَّهُ فِي أَلْفَاظِهِ وَمَعَانِيهِ وَأَسَالِيبِهِ عَرَبِيٌّ، بِحَيْثُ إِذَا حُقِّقَ هَذَا التَّحْقِيقَ، سُلِكَ بِهِ فِي الِاسْتِنْبَاطِ مِنْهُ، وَالِاسْتِدْلَالِ بِهِ، مَسْلَكَ كَلَامِ الْعَرَبِ، فِي تَقْرِيرِ مَعَانِيهَا، وَمَنَازِعِهَا فِي أنواع مخاطباتها خاصة؛ فإن كثيرا مِنَ النَّاسِ يَأْخُذُونَ أَدِلَّةَ الْقُرْآنِ بِحَسَبِ مَا يُعْطِيهِ

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

الْعَقْلُ فِيهَا، لَا بِحَسَبِ مَا يُفهم مِنْ طَرِيقِ الْوَضْعِ، وَفِي ذَلِكَ فَسَادٌ كَبِيرٌ، وَخُرُوجٌ عَنْ مَقْصُودِ الشَّارِعِ"[1].

فالذي يفسر النص القرآني عليه أن يعرف تقاليد العرب في الكلام، وعاداتها في الخطاب ومن عادتها في الخطاب "أنها تخاطب بالعام يراد به ظاهره، وبالعام يراد به العام في وجه، والخاص في وجه، وبالعام يراد به الخاص، والظاهر يراد به غير الظاهر.....وتتكلم بالكلام ينبئ أوله عن آخره، أو آخره عن أوله، وتتكلم بالشيء يعرف بالمعنى كما يعرف بالإشارة"[2].

ومن عادات العرب في أسلوبها "أَنْ لَا تَرَى الْأَلْفَاظَ تَعَبُّدًا عِنْدَ مُحَافَظَتِهَا عَلَى الْمَعَانِي، وَإِنْ كَانَتْ تُرَاعِيهَا أَيْضًا، فَلَيْسَ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ عِنْدَهَا بِمُلْتَزَمٍ، بَلْ قَدْ تَبْنِي عَلَى أَحَدِهِمَا مَرَّةً، وَعَلَى الْآخَرِ أُخْرَى، وَلَا يَكُونُ ذَلِكَ قَادِحًا فِي صِحَّةِ كَلَامِهَا وَاسْتِقَامَتِهِ[3].

فاللفظ ليس غاية مقصودة لذاتها، بل هو وسيلة لإيصال المعنى، فإذا وصل المعنى بأي أسلوب حصل الغرض، ويذكر الشاطبي أن من أسباب التباس معنى القرآن على بعض الناس التماس غرائبه ومعانيه بعيدا عن الأسلوب العربي، قال الشاطبي: "وَكَثِيرًا مَا يُغْفَلُ هَذَا النَّظَرُ بِالنِّسْبَةِ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، فَتُلْتَمَسُ

(1) الشاطبي، الموفقات: المصدر السابق: ج1ص39 .

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص103.

(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص131.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

غَرَائِبُهُ وَمَعَانِيهِ عَلَى غَيْرِ الْوَجْهِ الَّذِي يَنْبَغِي فَتَسْتَبْهِمُ عَلَى الْمُلْتَمِسِ، وَتَسْتَعْجِمُ عَلَى مَنْ لَمْ يَفْهَمْ مَقَاصِدَ الْعَرَبِ، فَيَكُونُ عَمَلُهُ فِي غَيْرِ مَعْمَلٍ، وَمَشْيُهُ عَلَى غَيْرِ طَرِيقٍ"[1].

فمن أسباب الضلال في فهم القرآن الكريم الجهل بأسلوب العرب في الكلام والحديث، ومن راجع تاريخ الفرق الضالة وسوء تأويلها للقرآن أدرك أنها أوتيت من قِبَل جهلها بالأسلوب العربي.

ومن الأمور التي راعها النص القرآني في أسلوبه أعراف العرب في خطابها، وحديثها -كما ذكر الشاطبي-:

01-الخروج في كثير من كلامها عن قوانينه المطردة، وضوابطه المستمرة " وجريانها في كثير من منثورها على طريق منظومها"[2]، وهذا ما يلاحظه المشتغلون بالكلام العربي من صرف الممنوع من الصرف، كما في قوله تعالى: (سَلَاسِلَ وَأَغْلَالًا وَسَعِيرًا) [الإنسان: من04]، فقد قرئت مصروفة، وممنوعة من الصرف، ونظائر هذا موجود في القرآن.

02-"الاستغناء ببعض الألفاظ عما يرادفها أو يقاربها "[3]، ويورد الشاطبي لذلك أمثلة من اختلاف القراءات مثل: (مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة: 4] و (مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ) [الفاتحة: 4]، فقد قُرِئ بالكلمتين[4].

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص140.

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص131.

(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص132.

(4) ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص132.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

- (وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)، [البقرة: من: 9] (وَمَا يَخْادَعُونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ)، [البقرة: من: 9]، فقد قُرِئَ بالكلمتين[1].

3-الممدوح من كلام العرب ما كان بعيدا عن التكلف[2]، "فَلَا يَسْتَقِيمُ لِلْمُتَكَلِّمِ فِي كِتَابِ اللَّهِ، أَوْ سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أَنْ يَتَكَلَّفَ فِيهِمَ فَوْقَ مَا يَسَعُهُ لِسَانُ الْعَرَبِ"[3].

ومن هذا تحميل بعض الآيات، مالا يحتمله اللسان العربي.

4-الأولوية في خطاب العرب إلى المعاني وإصلاح الألفاظ من أجلها[4].

أي أن العرب لم تكن تلتفت كثيرا إلى الالفاظ والمفردات إذا كان المعنى العام مفهوما.

واستدل الشاطبي على ذلك بما يروى "عَنْ أَنَسٍ أَنَّ رَجُلًا سأل عمر بن الخطاب عن قوله:

(فَاكِهَةً وَأَبًّا)، [عبس: من31]: مَا الْأَبُّ؟ فَقَالَ عُمَرُ: نُهِينَا عَنِ التَّعَمُّقِ وَالتَّكَلُّفِ"[5].

(1) ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص132.

(2) ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص135.

(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص135.

(4) ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص138.

(5) الإمام الحافظ: أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت، 1349هـ: ج13ص271.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

وَمِنَ الْمَشْهُورِ تَأْدِيبُهُ لِصَبِيغ حِينَ كَانَ يُكْثِرُ السُّؤَالَ عَنِ(الْمُرْسَلاتِ)، [المرسلات: 1].

وَ (الْعَاصِفَاتِ) [المرسلات: 2] وَنَحْوِهِمَا[1].

وَظَاهِرُ هَذَا كُلِّهِ، أَنَّهُ إِنَّمَا نَهَى عَنْهُ؛ لِأَنَّ الْمَعْنَى التَّرْكِيبِيَّ مَعْلُومٌ عَلَى الْجُمْلَةِ، وَلَا يَنْبَنِي عَلَى فَهْمِ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ حُكْمٌ تَكْلِيفِيٌّ، فَرَأَى أَنَّ الِاشْتِغَالَ بِهِ عَنْ غَيْرِهِ مِمَّا هُوَ أَهَمُّ مِنْهُ تكلُّفٌ "[2].

هذا إذا لم يكن للفظ أثر في المعنى العام، أما إذا كان له أثر في المعنى العام فالحرص على شرحه وبيانه مطلوب، واستدل الشاطبي على ذلك بما يروى: "عَنْ عُمَرَ نَفْسِهِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: (أَوْ يَأْخُذَهُمْ عَلَى تَخَوُّف) [النحل: من 47]، فَإِنَّهُ سُئِلَ عَنْهُ عَلَى الْمِنْبَرِ فَقَالَ لَهُ رَجُلٌ مِنْ هُذَيْلٍ: التَّخَوُّفُ عِنْدَنَا التنقص، ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّحْلُ مِنْهَا تَامِكًا قَرِدًا كَمَا تَخَوَّفَ عُودَ النَّبْعَةِ السَّفَنُ

فَقَالَ عُمَرُ: أَيُّهَا النَّاسُ! تَمَسَّكُوا بِدِيوَانِ شِعْرِكُمْ فِي جَاهِلِيَّتِكُمْ، فَإِنَّ فِيهِ تَفْسِيرَ كِتَابِكُمْ"[3].

(1) الإمام الحافظ أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية 1420هـ: ج1ص254).

(2) الشاطبي الموافقات: المصدر السابق: ج2ص139).

(3) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص139،140.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

فالأولوية عند العرب في أسلوبها لإيصال المعنى والمقصود من الكلام، فإذا توقف إيصال المعنى العام على اللفظة حرصت العرب على معرفتها وبيانها وتوضيحها بما يزيل لبس المعنى العام، أما إذا لم يتوقف المعنى العام على اللفظ فالعرب لا تكترث بها.

الفرع الثالث: ثقافة العرب

يرى الشاطبي أنه لا يفسر القرآن بما لا تعرفه العرب في حياتها، ولا تجده في بيئتها، وليس معهودا في ثقافتها وتقاليدها، يقول الشاطبي: "فَإِذاً: تَفْسِيرُ قَوْلِهِ: (أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا) [ق: 6] بِعِلْمِ الْهَيْئَةِ الَّذِي لَيْسَ تَحْتَهُ عَمَلٌ؛ غَيْرُ سائغ؛ ولأن ذلك من قبيل ما لا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ، وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا نَزَلَ بِلِسَانِهَا وَعَلَى مَعْهُودِهَا، وَهَذَا الْمَعْنَى مَشْرُوحٌ فِي كِتَابِ الْمَقَاصِدِ بِحَوْلِ اللَّهِ، وَكَذَلِكَ الْقَوْلُ فِي كُلِّ عِلْمٍ يُعزى إِلَى الشَّرِيعَةِ لَا يُؤَدِّي فَائِدَةَ عَمَلٍ، وَلَا هُوَ مِمَّا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ؛ فَقَدْ تَكَلَّفَ أَهْلُ الْعُلُومِ الطَّبِيعِيَّةِ وَغَيْرِهَا الِاحْتِجَاجَ عَلَى صِحَّةِ الْأَخْذِ فِي عُلُومِهِمْ بِآيَاتٍ مِنَ الْقُرْآنِ، وَأَحَادِيثَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ كَمَا استدل أَهْلُ الْعَدَدِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (فاسْأَلِ الْعَادِّينَ) [المؤمنون: 113].

وَأَهْلُ النِّسَبِ الْعَدَدِيَّةِ أَوِ الْهَنْدَسِيَّةِ بِقَوْلِهِ تَعَالَى: (إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ..... مِائَتَيْنِ) [الأنفال: من 65 إِلَى آخَرِ الْآيَتَيْنِ]، وَأَهْلُ الْكِيمِيَاءِ بِقَوْلِهِ عَزَّ

ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1 دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان: ج3ص228.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

وَجَلَّ: (أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا) [الرعد: من17]، وَأَهْلُ التَّعْدِيلِ النُّجُومِيِّ بِقَوْلِهِ: (الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ) [الرحمن: 05] وَأَهْلُ الْمَنْطِقِ فِي أَنَّ نَقِيضَ الْكُلِّيَّةِ السَّالِبَةِ جُزْئِيَّةٌ مُوجَبَةٌ بِقَوْلِهِ: (إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ) [الأنعام: من 91] وَعَلَى بَعْضِ الضُّرُوبِ الْحَمْلِيَّةِ وَالشُّرْطِيَّةِ بِأَشْيَاءَ أُخر، وَأَهْلُ خَطِّ الرَّمْلِ بِقَوْلِهِ سُبْحَانَهُ (أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ) [الأحقاف: من: 04]".

وتحدث القرآن عن أنواع من ثمار الجنة تعرفها العرب، وذلك في قوله تعالى: ".....الْمَاءِ وَاللَّبَنِ، وَالْخَمْرِ، وَالْعَسَلِ، وَالنَّخِيلِ، وَالْأَعْنَابِ، وَسَائِرِ مَا هُوَ عِنْدَهُمْ مَأْلُوفٌ"[1]، ولم يتحدث القرآن عن أنواع من الثمار لا تعرفها العرب، مثل: "الْجَوْزِ وَاللَّوْزِ، وَالتُّفَّاحِ، وَالْكُمَّثْرَى، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَوَاكِهِ الْأَزْيَافِ وَبِلَادِ الْعَجَمِ"[2].

فتفسير القرآن بعيدا عن السياق الثقافي العام عند العرب زمن التنزيل قد يبعد المفسر عن المعنى الصحيح الذي أراده الله في كتابه.

الفرع الرابع: علوم العرب

قد يتساءل البعض لِمَاذا أشار القرآن إلى بعض فروع العلوم، دون فروع أخرى، والسبب في ذلك، أن القرآن أشار إلى العلوم المعروفة عند العرب، دون مالا تعرفه العرب من علوم ومعارف، يقول الشاطبي: "وَاعْلَمْ أَنَّ الْعَرَبَ كَانَ لَهَا اعْتِنَاءٌ بِعُلُومٍ ذَكَرَهَا النَّاس...فمن علومها، عِلْمُ النجوم وما يَخْتَصُّ بِهَا مِنَ الِاهْتِدَاءِ

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج1ص59.

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص125،126.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ، وَاخْتِلَافِ الْأَزْمَانِ بِاخْتِلَافِ سَيْرِهَا، وَتَعَرُّفِ مَنَازِلِ سَيْرِ النَّيِّرَيْنِ وَمَا يَتَعَلَّقُ بِهَذَا"[1].

وقد ذكر الشاطبي آيات كثيرة في هذا السياق، منها: قوله تعالى: (وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ) [الأنعام: 97]، وقوله تعالى: (وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ) [النحل: 16].

ومن العلوم التي اهتمت بها العرب علوم التاريخ والطب وعلوم البلاغة والفصاحة

فبالنسبة لعلم التاريخ يقول الشاطبي: ".. وَمِنْهَا: عِلْمُ التَّارِيخِ وَأَخْبَارُ الْأُمَمِ الْمَاضِيَةِ وَفِي الْقُرْآنِ مِنْ ذَلِكَ مَا هُوَ كَثِيرٌ، وَكَذَلِكَ فِي السُّنَّةِ، وَلَكِنَّ الْقُرْآنَ احْتَفل فِي ذَلِكَ، وَأَكْثَرُهُ مِنَ الْإِخْبَارِ بِالْغُيُوبِ الَّتِي لَمْ يَكُنْ لِلْعَرَبِ بِهَا عِلْم، لَكِنَّهَا مِنْ جِنْسِ مَا كانوا ينتحلون"[2].

وذكر الشاطبي نماذج لذلك من القرآن منها: قوله تعالى: (ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلامَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَم) [آل عمران: 44]، وقوله تعالى: (تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا) [هود: 49].

وبالنسبة لعلم الطب يقول الشاطبي: "وَمِنْهَا: عِلْمُ الطِّبِّ، فَقَدْ كَانَ فِي الْعَرَبِ مِنْهُ شَيْءٌ، لَا عَلَى مَا عِنْدَ الْأَوَائِلِ، بَلْ مَأْخُوذٌ مِنْ تَجَارِيبِ الْأُمِّيِّينَ، غَيْرُ مَبْنِيٍّ

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص112. ينظر: نفس المرجع: 127/2.
(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص117.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

عَلَى عُلُومِ الطَّبِيعَةِ، الَّتِي يُقَرِّرُهَا الْأَقْدَمُونَ، وَعَلَى ذَلِكَ الْمَسَاقِ جَاءَ فِي الشَّرِيعَةِ، لَكِنْ عَلَى وَجْهٍ جَامِعٍ شاف قليلٍ، يُطَّلَعُ مِنْهُ عَلَى كَثِيرٍ، فَقَالَ تَعَالَى: (وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا) [الأعراف: 31](1).

وبالنسبة لعلوم البلاغة والفصاحة يقول الشاطبي: "وَمِنْهَا: التَّفَنُّنُ فِي عِلْمِ فُنُونِ الْبَلَاغَةِ وَالْخَوْضُ فِي وُجُوهِ الْفَصَاحَةِ، وَالتَّصَرُّفُ فِي أَسَالِيبِ الْكَلَامِ، وَهُوَ أَعْظَمُ مُنْتَحَلَاتِهِمْ، فَجَاءَهُمْ بِمَا أَعْجَزَهُمْ مِنَ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، قَالَ تَعَالَى: (قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا) [الإسراء: 88](2).

يرى الشاطبي أن تفسير قوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) [الأنعام:38] باحتواء القرآن على جميع العلوم، حتى التي لم تعرفها العرب، يعارض طريقة النص القرآني في خطاب العرب بما تعرفه، وما تفهمه.

وعليه يكون معنى (الكتاب) في الآية هو اللوح المحفوظ، أو المقصود بقوله تعالى: (مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ) [الأنعام: 38] من التكاليف التي كلف الله بها عباده، فجميعها في الكتاب(3).

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص120.

(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص121.

(3) ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص129.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

الفرع الخامس: أخلاق العرب

ركز القرآن على الأخلاق التي تعرفها العرب، فأشاد بالحسن منها ودعا إليه، وحذر من القبيح ونهى عنه، يقول الشاطبي: "وَكَانَ لِعُقَلَائِهِمِ اعتناء بمكارم الأخلاق، واتصاف بمحاسن الشيم فَصَحَّحَتِ الشَّرِيعَةُ مِنْهَا مَا هُوَ صَحِيحٌ وَزَادَتْ عَلَيْهِ، وَأَبْطَلَتْ مَا هُوَ بَاطِلٌ، وَبَيَّنَتْ مَنَافِعَ مَا يَنْفَعُ مِنْ ذَلِكَ، وَمَضَارَّ مَا يَضُرُّ منه"[1]، فإذا لم يحذر القرآن عن أخلاق قبيحة لم تعرفها العرب، لا يعني أنه يقرها.

وبالنسبة للأخلاق الحميدة التي عرفتها العرب، يقول الشاطبي: "وَأَمَّا مَا يَرْجِعُ إِلَى الِاتِّصَافِ بِمَكَارِمِ الْأَخْلَاقِ، وَمَا يَنْضَافُ إِلَيْهَا، فَهُوَ أَوَّلُ مَا خُوطِبُوا بِهِ، وَأَكْثَرُ مَا تَجِدُ ذَلِكَ فِي السُّوَرِ الْمَكِّيَّةِ، مِنْ حيث كان آنس لهم"[2] وذكر الشاطبي لذلك نماذج من آي القرآن منها: قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى) [النحل:90]، وقوله: (قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا) [الأنعام: 151]، وحرم القرآن الخمر؛ لأنها من الفواحش المعروفة عند العرب[3]؛ لذلك يخطئ من يبيح مواد أخطر من الخمر كالمخدرات مثلا، أو يجعلها دون الخمر في التحريم، بدعوى أن القرآن لم يحرمها كما حرم الخمر، أو القول بأنها لو كانت في درجته لنهى عنها كما نهى عن الخمر.

(1) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص112.
(2) الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص122.
(3) ينظر: الشاطبي، الموافقات: المصدر السابق: ج2ص123.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهوريّة الجزائريّة الديمقراطيّة الشّعبيّة
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

الخاتمة

إن فهم القرائن المحيطة بالبيئة التي نزل فيها لقرآن واستيعابها من خلال فهم أبعادها البيئة الاجتماعية والثقافية والسياسية مفتاح ضروري لفهم القرآن، وإهمال ذلك يؤدي إلى انحراف في فهم القرآن؛ وقد انحرفت طوائف في تأويل القرآن؛ بسبب إهمال السياق الذي نزل فيه القرآن.

وأولى مَن يؤخذ برأيه في تحديد معنى النص القرآني هم أولئك الذين عايشوا التنزيل، ليس -فقط- بسبب معرفة اللسان العربي من ألفاظ ومبان؛ لأن معنى اللفظ والمبنى يمكن تحديده بالرجوع إلى الشروح والقواميس اللغوية، ولكن كون الصحابة أولى بفهم القرآن من غيرهم؛ بسبب معرفتهم بالسياق العام الذي نزل فيه القرآن الكريم.

فالسياق العام الذي نزل فيه القرآن يشكل جزءا لا يتجزأ من اللسان العربي الذي نزل به القرآن.

وهناك قرينة ورابط مهم في تحديد معنى النص لا يعرفه إلا من عايش تشكل النص وبالنسبة للقرآن لا يعرفها إلا من عايش تنزله، وهو قرينة ورابط شعوري الذي يشعر به ويحسه من شاهد ولاحظ أجواء تكون نص ما.، أو عاصر نزول القرآن.

فمثلا من حضر إلقاء خطاب لحاكم، قد ينطبع في ذهنه رأي وتحليل للخطاب قد لا يستطيع –بالضرورة- الإفصاح عن القواعد العلمية والأسس المنطقية التي بنى عليها هذا الرأي، كما يقولون في الاستحسان معنى يشعر به المجتهد، لا يجد العبارة التي تسع التعبير عنه.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

ومن هنا كان رأي الصحابة ضروريا؛ لبيان معاني القرآن، وتوضيح مقاصده؛ لأنهم عايشوا الجو العام لنزوله، ولاحظوا القرائن المحيطة بذلك النزول، فقد ينقدح في ذهنهم من المعاني مالا يفهمه غيرهم ولا يصله سواهم بأدوات الاجتهاد التقليدية، والمقتصر على تحليل ألفاظ وجمل الكلام.

فإهمال السياق في فهم القرآن هو الذي أدى إلى هذا الشطط في الفهم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين..

المراجع:

-أحمد بابا بن أحمد بن الفقيه الحاج أحمد بن عمر بن محمد التكروري التنبكتي السوداني أبو العباس، نيل الابتهاج بتطريز الديباج، ت: عبد الحميد عبد الله الهرامة ط2 دار الكتب طرابلس ليبيا 2000م.

-أحمد بن علي بن حجر العسقلاني، فتح الباري بشرح صحيح الإمام أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري، ترقيم: محمد فؤاد عبد الباقي، دار المعرفة بيروت، 1349هـ

-إبراهيم محمد الجرمي، معجم علوم القرآن ط1 دار القلم دمشق، 1422هـ 2001م.

-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، الإفادات والإنشادات، دراسة وتحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان ط1 مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان 1403هـ 1983م.

-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي الأندلسي، فتاوى الإمام الشاطبي، تحقيق: الدكتور محمد أبو الأجفان ط2 1406هـ 1985م.

-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات، تقديم: أبو عبيدة مشهور بن حسن آل سلمان.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

-أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد اللخمي الشاطبي، الموافقات، ت: عبد الله دراز، دار الحديث القاهرة، 1427هـ 2005م

- أيوب بن موسى الحسيني القريمي الكفوي، أبو البقاء الحنفي، الكليات معجم في المصطلحات والفروق اللغوية، تحقيق: عدنان درويش محمد المصري ط1 مؤسسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1419هـ -1998م.

-أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي المعروف بابن سيده، المحكم والمحيط الأعظم تحقيق: الدكتور عبد الحميد هنداوي، ط1 دار الكتب العلمية-بيروت- لبنان 1421هـ 2000م.

-السيد الشريف أبو الحسن علي بن محمد بن علي الحسيني الجرجاني الحنفي، الكليات التعريفات وضع حواشيه وفهارسه: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان 1424هـ- 2003م.

-الشريف أبو عبد الله محمد بن أحمد الحسيني التلمساني، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ويليه كتاب مثارات الغلط في الأدلة، تحقيق: محمد علي فركوس ط1 مؤسسة الريان للطباعة والنشر والتوزيع، 1419هـ 1998م.

-شهاب الدين أبو الفلاح عبد الحي بن أحمد بن محمد العكري الحنبلي الدمشقي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط ط1 دار ابن كثير-بيروت، 1406هـ 1986م.

-أبو العباس أحمد بن يحي الونشريسي، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية الرباط ودار الغرب الإسلامي-بيروت لبنان: 1401هـ، 1981م.

- أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي، كتاب العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور إبراهيم السامرائي.

مجلة الثقافة الإسلامية
Islamic Culture Magazine
ISSN : 2170-0869 / EISSN : 2773-398X
الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة الشؤون الدينية والأوقاف
المجلد17 / العدد: 20 (2023)، ص 117- 154
Vol 17 / N° 20 (2023), page 117- 154

- عبد العزيز بن أحمد بن محمد، علاء الدين البخاري الحنفي، كشف الأسرار شرح أصول البزدوي دار الكتاب الإسلامي.

-أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الإفريقي المصري، لسان العرب، دار صادر- بيروت- لبنان.

-محفوظ بن أحمد بن الحسن أبو الخطاب الكلوذاني الحنبلي، التمهيد في أصول الفقه، تحقيق: الدكتور مفيد محمد أبو عمشة، ط1 مركز البحث وإحياء التراث الإسلامي كلية الشريعة والدراسات الإسلامية-جامعة أم القرى-مكة المكرمة 1406هـ - 1985م.

-محمد بن الشيخ العلامة علي بن آدم بن موسى الإتيوبي الولوي، البحر المحيط الثجاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج، ط1 دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع 1431هـ.

-أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بهرام الدارمي، مسند الدارمي المعروف بسنن الدارمي، تحقيق: حسين سليم أسد الداراني، دار المغني للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية 1420هـ.

-ناصر الدين أبو الخير عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي الشافعي البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل المعروف بتفسير البيضاوي، ت: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط1 دار إحياء التراث العربي للطباعة والنشر والتوزيع-بيروت-لبنان.

-نعيمة قدوري، القرائن اللغوية وغير لغوية وأثرها في تحليل الخطاب القرآني، أطروحة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في علم الدلالة، قسم اللغة والأدب العربي- كلية الآداب واللغات، جامعة أبي بكر بلقائد، السنة الجامعية: 1436هـ-1437هـ/2015م-2016م.

- نور الدين عتر، علوم القرآن.